مسيرته مرت بالشعر والرواية وصولا الى قضايا انتهاكات حقوق الانسان في المغرب

صلاح الوديع: يجب ان نتذكر جيدا لكي ننسى

محمد العربي غجو*

■ أن تلتقي بالشاعر صلاح الوديع معناه أنك تلتقي بشخصية متعددة الأبعاد، غنية بحضورها الإنساني والإبداعي، ثرية بعمق ومساحة انشغالها بما هو فكري وإبداعي وحقوقي وسياسي. المركز الثقافي الأندلسي بمرتيل في إطار سلسلة أنشطته حول: «الكلمة وسنوات الجمر» استضاف مساء يوم الجمعة 17 شباط (فبراير) 2006 صاحب «جراح الصدر العاري» 1974 «ولا زال في القلب شيء يستحق الانتباه» 1984 ورواية «العريس» 1988 ليفسح أمام الحضور فرصة مساءلته حول الكتابة والشعر في سنوات الجمر والرصاص ومتابعة تجربته الجديدة في إطار هيئة الإنصاف والمصالحة وإماطة اللثام عن تفاصيل مباشرته الميدانية لملف الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان والوقوف عند خلاصة تجاربه وتصوراته للراهن السياسي والحقوقي والإبداعي في مغرب اليوم. صلاح استهل كلامه بالحديث عن أهمية الكتابات التي ارتبطت بالتعبير عن هذه المرحلة وسجل الزخم الكبير لهذه الكتابات ووفرتها باعتبارها «انفجارات الذاكرة» وتفجيرا للمسكوت عنه حول الفظاعات التي كانت ترتكب في الدهاليز والأقبية. يقول صلاح: «بالإضافة إلى القيمة التوثيقية لتلك الكتابات فهي قد وضعت جيلا كاملا في مواجهة ذاكرته حيث أصبح القول تحريضا على التوجه للمسكوت عنه.. فالذي يقرأ لبوريكات والمرزوقي يفاجأ بدقة التفاصيل كما أن السينما والتشكيل في المغرب استفادا من هذه التجربة».

تفاوتت هذه الكتابات يقول صلاح من حيث قيمتها الفنية والأدبية بعضها اطلع فقط بمهمة إثبات سياق وأحداث لا يذكرها إلا من عاشها وبعضها الآخر استطاع أن يرتاد آفاقاً إبداعية وأدبية على درجة كبيرة من التميز.

وعلى العموم فالكتابة السجنية كما يرى صلاح هي ذات قيمة علاجية .. فثمة إحساسات حميمية ذات طابع وجداني ونفسي لا يستطيع سبر أغوارها إلا الكتابة.. وذلك في نوع من التجاوز الداخلي لمحيطات سيكولوجية تمنع عملية التآكل الداخلي... الكتابة بهذا المعنى هي تأمين للصمود الداخلي في وجه آلة السجن الجهنمية التي تتوخى تدمير الذات وتقليص أبعادها الإنسانية والاجتماعية إلى أبعد الحدود،

وفي هذا السياق يتحدث صلاح عن روايته «العريس» التي لاقت ترحيبا وإقبالا كبيرين في الوسط الثقافي والأدبي.. هذه الرواية التي حولت المضمون المأساوي لطقوس التعذيب ويوميات الاعتقال إلى نوع من «الملهاة» و«السخرية المرة» التي أضفت على هذا العمل الأدبي باعتراف الناقد السوري صبحي حديدي تميزا ما كان ليتحقق له لو سلك فيه كاتبه منحى تقريريا عاديا.

صلاح الوديع انطلق في هذا العمل من قاعدة ذهبية ما فتئ يكررها وبصيغ مختلفة على امتداد اللقاء الذي استغرق ثلاث ساعات:

«نعم للعودة إلى الذاكرة.. لكن دون السقوط في اجترار آلامها».

«يجب أن نتذكر جيدا لكي ننسى».

«أيها السجن قد علمتني معنى أن أحب الحياة

لكنني لا أسمح لك بأن تسكن روحي وتسمم حياتي إلى الأبد».

بهذه الروح كتب صلاح رواية «العريس» وبهذه الروح أيضا كان يباشر الاتصال بضحايا سنوات الرصاص هو وزملاؤه في هيئة الإنصاف والمصالحة لإعداد سيناريوهات جلسات الاستماع العمومي التي بثت بعضها قنوات التلفزيون المغربي،

بهذه الروح المتعالية على أحزان الماضي وجراحاته وآلامه يدعو صلاح للنظر للمستقبل بنظرة مغايرة، نظرة لا يتم فيها تبخيس الذات وتنفيه منجزاتها فهيئة الإنصاف والمصالحة حسب صلاح خطوة هامة على درب تصالح المغرب مع ذاته وماضيه وعملية بيداغوجية هامة تابعها كثير من المراقبين الدوليين والحقوقيين بالكثير من الاهتمام والتقدير... وتبقى تمرينا ضروريا في مسلسل الطموح لبناء ديمقراطي لا يأخذ بعين الاعتبار الجانب المؤسساتي فحسب بل يراعي التربة الثقافية العميقة في الوجدان...

ويبقى في الأخير صلاح الشاعر الذي صدح في منتصف السبعينيات وفي منتصف الثمانينيات بصوت شعري متألق في ديوانيه «جراح الصدر العاري» و«لا زال في القلب شيء يستحق الانتباه»، يبقى هذا الشاعر حاضرا في ضمير القصيدة المغربية وفي تلافيف وجدانها... يبقى صوتا من أصوات سمفونيتها الباذخة الألوان... ويبقى جمهور شعره وهو يتابع «لحظته الشعرية» على قناة دوزيم تواقا إلى ما ستتفتق عنه أنامل هذا المنحدر من سلالة الشعر حيث الأم شاعرة والأب شاعر والآفاق كلها مطوقة بالشعر وواعدة بكل ما يخصب تربة الإبداع ويبذر فيها نباتا جديدا..

ولعل التجارب الإنسانية العميقة التي خبرها صلاح الوديع وهو يعود لفتح الصفحات الأليمة لماضي الانتهاكات الجسيمة لحقوق الإنسان قد تساهم ولا شك في تحريك مخزون الدفق الشعري لديه وقد تلمس الجمهور الحاضر في مركز الأندلس مساءئذ هذه القدرة الاستثنائية على سرد التفاصيل في وصف شاعري محرق «انزلق» إليه الشاعر دونما سابق تخطيط وهو يحكي عن فظاعة سجن أكدز ومنطقة تاكونيت «وجبل صقر ذي الصخور المرعبة السوداء والسجين المعلق من رجله في فراغ لا نهائي وصمت لا نهائي» وكأننا أمام مشهد سوريالي قيامي تقشعر له الأبدان..

فهل للشاعر أن ينفلت من كماشة الحقوقي ليحرر مارد الشعر من قمقمه؟

صلاح الوديع (القدس العربي)

* كاتب من المغرب

قراءات وتأويلات في دون كيخوتي

علاء نعماني*

■ دون كيخوتي: قراءات وتأويلات نصية وثقافية هو عنوان الندوة الدولية التي شارك فيها بالمداخلات : أحمد المديني، ابراهيم الخطيب، سعيد يقطين، محسن الرملي، اسماعيل العثماني، شعيب حليفي، حسن بوتكي، البيرطوطوريس، عبد اللطيف شهبون، مصطفى جباري، سعيد بنعبد الواحد، البيرطورياس، مزوار الادريسي، محمد الداهي ومصطفى النحال.

في مدينة طنجة المطلة على ضفة البحر المتوسط، وطريق العبور الى اسبانيا، التأمت أشغال ندوة دولية في موضوع (دون كيخوتي قراءات وتأويلات نصية وثقافية) وذلك يومي الجمعة والسبت 20 ـ 21 كانون الثاني (يناير) 2006 بقاعة معهد ثيربانتيس بطنجة والذي سهر على تنظيمه اتحاد كتاب المغرب بتنسيق وتعاون مع فرعه بطنجة ومعهد ثيربانتيس. وقد أكد عبد الحميد عقار (رئيس اتحاد كتاب المغرب) في جلسة افتتاح هذه الندوة على أهمية الاصغاء والمساهمة لما يجري ثقافيا في العالم، والبعد المتوسطي الذي تنحوه ثقافتنا.

وفي نفس السياق جاءت كلمة أرتور لورانزو (مدير المعهد) وكذا كلمة بهاء الطود رئيس فرع طنجة المتوجهة في سياق الانفتاح على الثقافة المتوسطية.

عدد من الأفكار والتأويلات عرفتها الجلسة الأولى برئاسة سعيد كوبريت حيث تدخل أحمد المديني (البحث عن دون كيخوتي: التأويل المفارق) من خلال عدد من الملاحظات والتساؤلات حول التلقي وعلاقتنا بالنص ثم انتقل الى الترجمة التي جاءت ناقصة ومتأخرة.

في ما اختار ابراهيم الخطيب البحث في (طوماس مان يقرأ دون كيخوتي : ملاحظة بيبلوغرافية) مستعرضا ملاحظات الكاتب الألماني في مذكراته خلال رحلة دامت عشرة أيام بحرا من سويسرا الى أمريكا حول رواية دون كيخوتي، وهي آراء نقدية وابداعية.

المداخلة الثالثة ساهم بها سعيد يقطين في موضوع (دون كيخوتي: النص الثقافي والتفاعل النصي) معيدا النقاش حول النص باعتباره شبكة واسعة من النصوص تنتظم بواسطة صلات متعددة في بنية محورية.

المتدخل الأخير في هذه الجلسة محسن الرملي (العراق) حول (أثر الكيخوتي في الثقافة العربية المعاصرة) حيث مهد بالحديث عن الآثار العربية في نص دون كيخوتي مقدما بعض المعلومات والاحصائيات قبل أن ينتقل الى الترجمة العربية ثم الأثر الأدبي في الثقافة العربية المعاصرة في الشعر والقصة والمسرح والرواية والفن التشكيلي.

الجلسة الثانية انطلقت برئاسة خالد أمين، وتدخل في البداية اسماعيل العثماني (دون كيخوتي بين المخطوط والمخبوط) مفتتحا كلامه بنص ورد عند افوقاي الحجري ثم متنقلا للحديث عن اسم سيدي حامد بن الأيلي والاحتمالات التي ربطها الباحث بالمورسكين واكتشاف صندوق بغرناطة وأفوقاي.

وانصبت مداخلة شعيب حليفي (تشكلات الرؤية والخيال: قراءة في دون كيخوتي) حول ثلاثة محاور أساسية، مرجعيات ثيربانتيس، ثم تشكل الرؤية وأخيرا المتخيل الروائي في دون كيخوتي.

وقرأ في نهاية الجلسة حسن بوتكي عتبات دون كيخوتي والتي توجه فعل القراءة نظرا لغناها بالاشارات وتضمنها ايحاءات وسخرية وغوايات ممتدة في النص.

وحققت الجلستان المتبقيتان المزيد من التنقيب والأسئلة في رواية دون كيخوتي والتفاعلات التي خلفتها ترجمتها الى العربية، فقد تحدث البيروطو طوريس عن المطالبة بالحرية في الدون كيخوتي وواصل عبد اللطيف شهبون النبش في علاقة الأدباء المغاربة بثيربانتيس، متوقفا عند ادريس الجاي نموذجا، أما مصطفى حباري فينطلق في مداخلته من اعتبار الرواية كتابا كلاسيكيا باعتبار أن الكلاسيكي هنا مقام ثقافي نصي.

سعيد بنعبد الواحد أضاء بعض التأويلات حول سيدي حامد وتعدد مصادر الحكي في دون كيخوتي، كما رصد البيروطوريباس دور الترجمة في بناء النص من خلال بعض المسارات مثلما قدم مزوار الادريسي ومحمد الداهي قراءة جديدة في منظور القارئ والكتابة. وختم مصطفى النحال بمقاربة النص المضاعف من خلال ترجمة عبد الرحمن بدوي.

وقد عرفت كل الجلسات نقاشات مستفيضة باضافات وتساؤلات تهم نصا سرديا كتبت حوله أزيد من نصف مليون دراسة ـ حسب قول أحد الدارسين المتخصصين في دون كيخوتي ـ وتحقق في هذا اللقاء، الذي يتوج عددا من اللقاءات المغربية السابقة ابراز رؤية مغربية في القراءة والتأويل النصي والثقافي لدون كيخوتي.

* كاتب من المغرب

لو وُجد 100 عاشق للشعر في كل مدينة فلا خوف عليه من التردي:

بوح خاص في حضرة القصيدة

علي كنعان*

■ يطيب لي أن يكون الحديث بسيطا مكثفا يشبه النجوى. لن أخوض في تعريفات الشعر كما يفعل المنظرون وأساتذة الأدب، على أهمية ما يفعلون في خدمة الشعر وإضاءة زواياه الظليلة أمام طلبة المدارس والجامعات. إنما سأحاول أن أقدم بوحا وجدانيا خاصا في حضرة القصيدة وأمام ثلة عزيزة من عشاقها ومبدعيها. إنه بوح طفل في السبعين عاشر القصيدة طويلا... وأنا أختار هنا فعل المعاشرة بدلا من المعايشة، لأن العشرة تنطوي على المحبة والمؤانسة والاهتمام. نعم، وبلا حرج ولا تردد أقول: إني عاشرت القصيدة أكثر مما أتيح لي أن أعاشر المرأة الحبيبة، على اختلاف أنماطها وجنسياتها وأطوار سكينتها وجنونها وألوان أديمها من خلاسية أمريكا اللاتينية حتى الشحوب الياباني الغامض، مرورا وانتهاء بأبهى وأغلى ما في ياسمين الشام من رقة الجمال وعذوبة الوجد ورهبة الانخطاف ولين الحرير وصوفية الماء. بيدأ الشعر حرفه الأول في صرخة الوليد، وهو يعب الهواء في شهقته الأولى؛ فالشعر قلق آسر واحتمال غائم وطموح جميل ومغامرة كثيفة الرهبة مريبة العاقبة.

العنوان المطروح علينا «الشعر بين الانتشار والانحسار» يفتح الباب واسعا أمام ألوان شتى من الآراء والملاحظات. وهنا أود أن أقول إن أمة تتخلى عن الشعر تكون مستعدة للتخلي عن تراثها ومستقبلها معا.. وحتى عن وجودها، لأن الشعر هو التجلي الفني والجمالي للقيم والمثل التي تؤمن بها وتعمل على نشرها، وهذه القيم هي التي تسهم في بناء مناعتها الروحية والفكرية والوجدانية.

العملة الرديئة

الذائقة الشخصية لكل واحد منا هي التي تقدر وتستسيغ وتطمئن إلى ما هو شعر، وهي ذاتها التي تنفر من شتى مظاهر الركاكة والادعاء والزيف. وتلك المظاهر لا تعدو أن تكون شطحات مجانية دخيلة لا تملك حق الدخول في ملكوت الشعر. وفي رأيي أن نسبة كبيرة مما يطالعنا في الدوريات الأدبية والمواقع الإلكترونية لا يدخل في باب الشعر ولا النثر، لأنه يفتقر إلى مقومات الكتابة الأساسية وصاحبها أبعد ما يكون عن إدراك سر اللغة وسلامة العبارة وبناء الجملة المفيدة. والسبب الرئيس في ذلك يعود إلى الخلل البنيوي في مناهجنا التربوية، كما يمكن إرجاعه إلى بؤس ثقافتنا وإلى القطيعة مع التراث، على اختلاف أصوله الأدبية والعلمية والفقهية. النجار والبناء والصائغ يتقن حرفته ويجيد فن استخدام أدواته بعد مران طويل، لكننا نرى أن ركاما عبثيا من الكتابة المتهافتة تفتقر إلى أبسط مهارات الصنعة لأن صاحبها لم يجتهد، وربما لم يكترث بفن الكتابة، ولم يصبر على مشقة السهر ويتمرس بمهارة الإبداع. الكاتب الذي لا يسعى إلى تحصيل المعرفة الكافية والكفيلة بانطلاقه في هذا الدرب الصعب الشائك، يفتقر إلى امتلاك الأدوات، وهو في الوقت ذاته يفتقر إلى الطريقة السليمة في استعمال تلك الأدوات. أليس غريبا أن يكون في مجال الصناعة العصرية علم اسمه "الأمن الصناعي" ولا نرى في مجال صناعة الكلمة مثل هذا العلم، ولو من باب الحذر والاحتياط؟ وهل ننسى أن فن صناعة الكلمة أخطر ما عرفت البشرية من صناعات؟! من هذه الزاوية، زاوية غياب التقييم والتقويم، يأتي هذا الطوفان الفظيع في سعة الانتشار. والعملة الرديئة ـ كما يقال ـ تطرد العملة الصحيحة من السوق.

لن أتوقف عند هذه النقطة، لأن الكتابة الرديئة تموت ساعة ولادتها وربما قبل تلك الولادة الفجة المبتسرة، وليس لنا أن نضيع الوقت في تفنيدها. سأنتقل إلى الشق الآخر، وهو الانحسار. فأنا لا أرى أن الشعر في حالة بلبلة أو انحسار؛ وما يعنيني هنا هو الشعر الجدير بحمل هذا الاسم. إن ظاهرة الاختصاص التي تعد من أبرز سمات عصرنا هي التي جعلت الشعر يبدو في حالة حصار وتأزم وانحسار، مع أن الواقع العربي العام هو الذي يعاني شتى ضروب التأزم والعطب، وهذه الحالة المرضية المزمنة لا بد أن تنعكس على مختلف مناحي الحياة.

كان الشعر ديوان العرب، لكنه لم يعد قائما بهذه المهمة ولا ينبغي له ذلك. إذا كان في كل مدينة عربية مئة عاشق حقيقي للشعر، فهذا يعني أن هذا الفن الجميل العذب ما زال بخير وعافية وازدهار، ولا خوف عليه من التردي أو الانقراض.

لكن، ماذا يعني أن يكون الشعر ديوان العرب؟ هل فكرنا في هذه العبارة ودلالاتها؟ هل نذهب مع لسان العرب إلى أن الديوان: مجتمع الصحف؟ أم نتقدم من دواوين الخلفاء والسادة والزعماء ونقارب المجاز فنقول إن الشعر حديث المجالس؟! ولا ننسى أن نشير إلى أن معظم أحاديث المجالس تسليات عابرة وثرثرات جوفاء لا فائدة فيها ولا متعة. إن إمعان النظر في المسألة يطرح علينا سؤالا آخر: هل ينحسر الشعر من الحياة العربية فعلا إذا لم يكن قد انحسر من نفوس الشعراء أنفسهم؟

إذا كنا نعني بالشعر كل شيء جميل وعذب ومضيء في هذه الحياة، فحسبنا أن نلقي نظرة عابرة على مشاهد الدم والدمار في الفضائيات العربية والعالمية. هذا يعني، إذا سمحنا لغمام التشاؤم أن يغشي الصورة، أن الشعر لم ينحسر وحسب ولكنه انتفى من حياة البشر وتلاشى إلى غير رجعة، إنما بنظرة بعيدة متأنية وطامحة، ورغم تراكم المظالم والظلمات، نلمح في آخر النفق الجهنمي براعم تتفتح وضياء نجم بعيد يستقي زيته من بسمات الأطفال ولهفة الأمهات وقلوب العشاق والشهداء وهم في زهوة شبابهم. هكذا يشمخ التحدي ويتجدد الأمل.. وهكذا نتملى هذه النفحات الندية الواعدة، ليواصل الشعر مقاومة الظلم والبشاعة واليباب وتمور في عروقه شهوة الحياة وإرادة الأحرار.

ثلاثة نماذج

إن الشعر يحتاج إلى حامل.. ونرى في واقعنا أن بعض الشعراء جعلوا من أنفسهم ومن أصحابهم منابر إعلام ودعاوة نشطة. وهنا سأضرب مثلا بثلاثة شعراء: نزار قباني ومحمود درويش وأدونيس. ليس في هذا الاختيار حكم قيمة، ولا أعني أن هؤلاء الشعراء طمسوا ذكر غيرهم وحرموهم من الوجود، إنما أرى أنهم أكثر شهرة وانتشارا في الساحة...

قضية المرأة هي الحامل الذي طار باسم نزار قباني عبر الآفاق. وإذا كانت هذه القضية تثير كثيرا من الجدال، وبخاصة من منظور التقدم والنكوص، فإن حساسية الشاعر المرهفة هي التي التقطت هذا الخيط الندي العذب، كما أن معجمه الشعري ونسيجه الجمالي الخاص، على بساطة مفرداته وشيوع صوره، أسهما في سعة انتشاره. مع أنني ألاحظ أن الشاعر بدا يكرر نفسه في السنوات الأخيرة، وهذه علة لا أدعي أن أي واحد منا سليم معافى منها، وإن تباينت نسب التكرار والاجترار.

وإذا أردنا أن نفتح دائرة النظر على الظروف الموضوعية فلا بد من القول إن نزار قباني هو الشاعر الرائد في فضاء الحرية الاجتماعية. بعد مئات السنين من الكبت الإقطاعي طوال مراحل الاستبداد العثماني، بدأت آثار الانتداب الفرنسي الذي امتد ربع قرن تترك شذرات من الضوء في العلم والانفتاح على العصر الجديد. فالبيت الشامي (أو العربي) الذي كان مسورا بالجدران الكتيمة مع الخارج لينفتح من داخله على السماء وحسب، بدأ طرازا عمرانيا جديدا يمتاز بالنوافذ والشرفات المطلة على العالم الخارجي. وموضوع الحريم والحجاب شهدا كذلك تغييرا جذريا.

وقضية فلسطين، هذه القضية المرتبطة بحرية الأمة وكرامتها ومصيرها؛ فلسطين هي الحامل الذي جعل شعر محمود درويش يمتد على اتساع العالم. لكن هذا الحامل لا يكفي وحده، ولعل امتياز الشاعر كامن في لغته وتفرده في نسج هذه اللغة. وربما كان وهج شاعريته معرضا للكسوف والخفوت لولا لغته المسبوكة بلمسات سحرية خاصة وحميمة جدا، إذ يشكل منها صورا فنية يتفرد بها فلا نرى له منافسا أو نظيرا. وهو يحاول بدأب مدهش وشجاعة مضنية أن يتخطى راهنه بلا كلل أو استرخاء، منذ أن رفض الاستجابة إلى (ما يطلبه المستمعون!) إلى مغامرته المدهشة في تجريب بلاغة البساطة.

وقضية فلسطين هذه ليست وقفا على درويش وحده أو على شعراء معينين، وإنما هي في لباب خلايا كل عربي، وفي بؤرة اهتمام كل مسلم، وحتى في هواجس عشاق الحرية وأنصار التحرر الوطني في العالم. أما الحامل الشعري لدى أدونيس، وبخاصة في دواوينه الأخيرة، فهو مشروع الحداثة الذي ما زال ملتبسا، لأن الحداثة في الشعر أو الرواية أو التشكيل لا تنسجم ولا تعيش في مجتمعات لم تقارب الحداثة ولم تدخل بعد أولى أساسياتها وأجوائها ومنطلقاتها. المطابخ العصرية لا تصنع شعرا عصريا ولا تبدع فنا معاصرا. وأرجو ألا أظلم الشاعر المتألق أو أنزلق إلى التحامل والمهاترة، إذا رأيت في نسبة كبيرة من شعره الأخير (وخاصة بعد انهيار جدار برلين) إرضاء للقارئ الغربي والمؤسسات الغربية، وبعض هذه المؤسسات ليست بريئة من علة الاستشراق والتعصب العنصري.

المرآة والصورة

وهنا لا بد لي من التوكيد أن حامل الشعر عند هذا الشاعر أو ذاك هو حامل ذاتي واجتماعي وحضاري في الوقت ذاته، ما دام الشعر جوهر كل إبداع إنساني حضاري. إن القيم التي تشكل هاجس الشعر العربي ورسالته الحميمة هي التي أعطته مكانته المتميزة على مر الأجيال. وربما أدى تردي الواقع العربي وضياع المعايير والقيم، إضافة إلى غياب الأمة عن الإسهام بالفعل الحضاري (وهو تغييب منهجي مدروس، يقوم فيه تخلفنا بالقسط الأكبر...)، أقول: ربما أدى ذلك إلى وقوع الشعر في منطقة الوهن والكسوف. فهل نتخلى عن هذا الكائن الجميل لأن أمراض الواقع العربي تريد ذلك؟

أذكر لقاء جرى (في مجلة نيوزويك الأمريكية) مع كاتب إفريقي مناضل أمضى في سجون العنصرية سنين قاسية، وحين سأله المحرر: "هل ستستمر في النضال أم أنك ستستريح؟".. كان الجواب المدهش: إذا لم تعجبك صورتك في المرآة، فهل تحطم المرآة أم تسعى إلى تحسين الصورة؟! تلك هي روح الشعر.. أن يستمر في المقاومة دفاعا عن جمال الحياة ومناخ العدالة والحرية والعافية والتعايش السلمي المتكافئ والآمن بين أبناء الأرض كافة.

ولكن، بعيدا عن ثنائية الانتشار والانحسار، أود أن أعترف أن جمهور الشعر لا يشغلني ولا يعنيني، إنما يعنيني قارئ الشعر. فالقارئ الجاد المتأني يعيد إنتاج القصيدة، ويجدد وجهها وحرارتها، ويستكمل بناءها بقدر ما يستقي منها المتعة والفائدة. هناك جمهور للمسرح والرياضة والسينما وما يطلبه المستمعون أو المشاهدون، لكن ليس للشعر جمهور كما كان في الماضي.. ولا ينبغي أن يكون له ذلك. فالشعر لا يحتاج إلى مصفقين. يكفيه أن يتمتع بقراء معدودين بالمئات أو بالألوف – على امتداد الوطن العربي.

قارئ الشعر هو العاشق الذي ألمّ إلماما جيدا بتراث أمته الشعري والنثري، وسعى بجد واهتمام واصطبار إلى الاطلاع على روائع الشعوب الأخرى. وقارئ الشعر هنا هو الشاعر، بالقوة أو بالفعل. ومن المفارقات أن نرى في مجتمعاتنا عشرات الألوف من المتعصبين لشعر التراث المبني على البحر الخليلي، لكن هؤلاء لا يكلفون أنفسهم عناء القراءة المتأنية والتأمل العميق ومعايشة الشاعر في لحظات الإبداع. إنهم يكتفون بسماع الإيقاع والاستمتاع به، كما اعتادوا أن يستمعوا إلى الأغاني الدارجة. الشعر عندهم حالة صوتية منغومة، لا أكثر. ويبلغ البؤس غايته حين تكتفي كتب الشعر بشرح المفردات، وكأن الشعر مجموعة من الأفكار المتراصفة، بمعزل عن المشاعر العميقة والدلالات المتنوعة والإيحاءات الخفية الموشاة بكثير من الظلال واللمسات الملونة الغامضة.

عالم بلا أسئلة!

قبل أكثر من ألف عام، قال أبو العلاء المعري:

أيها الغرُّ، إن خُصصتَ بعقلٍ

فأسألنْهُ.. فكلُّ عقلٍ نبيُّ

نحن في مجتمعات لا تبيح لأطفالها حرية التساؤل والسؤال! كل قصيدة من المعلقات أو من شعر الصعاليك أو العصر العباسي الأول تستأهل منا سهرة مستقلة لنتقرّى فيها مغامرة اللغة، فضلا عن فرادة التجربة ورهافة الرؤى وطلاقة الخيال. وسأكتفي هنا بإشارة لغوية سريعة إلى الشنفرى في رائعته التي يمجد فيها عالم الحيوان وما فيه من ألفة وتراحم ومسالمة ويؤثر العيش فيه على عالم البشر وما فيه من جور وحقد وطغيان... يقول الشاعر:

أديم مطال الجوع حتى أميته

وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل

لنتأمل هذا الفارق الكبير بين بنية الشطر الأول، حيث اختار الشاعر خمس كلمات ممدودة بحروف العلة، ويشعر القارئ أن أنفاسه تتقطع قبل أن ينتهي من قراءته. أهناك أقسى من مقاومة الجوع؟! لكن الشطر الثاني خال من أي مد، فإرادة الشاعر سرعان ما تنأى به عن ذكر ما يعانيه حتى ينساه أو يفقد إحساسه به من شدة الطوى وطول المكابدة.

ونعيد التأمل في أحرف العلة الثلاثة في الكلمات الثلاث الأولى. بدأ بالياء في (أديم)، ومن قاع هذا الكسر العميق انطلق صاعدا إلى ذروة الفتح مع الألف في (مطال) ثم انتهى بواو (الجوع)، هذا التناوب العفوي والاتساق المدهش والتوازن العجيب بين الحركات الثلاث وأحرف المد الثلاثة بكل دلالاتها وإيحاءاتها وتأثيراتها.. لا يأتي بها إلا شاعر عبقري أصيل لا تنفصل حياته عن شعره، بل ينصهران معا ويشكلان كلا واحدا. ولا بد أن أشير كذلك إلى مرارة السخرية من العلاقة التجارية بين الدائن الربوي والمدين العاجز عن الوفاء في كلمة (مطال)، ومن ثم (موت) هذا الدَّين بعد ذلك. كيف استطاع الشاعر أن يطفر خارج نفسه ليستحضر لنا ذلك الموقف الساخر والموجع، وكم رآه يتكرر في عكاظ وغيرها من أسواق جزيرة العرب؟!

ولا بأس أن نتجاوز تلك المراحل الذهبية لنقف مع المتنبي مثلا، ونحن جميعا نعلم أنه واسع الانتشار جدا وأن ذكره على كل لسان. إن قلة نادرة من قرائه يمكن أن يتوقفوا عند روائعه الكثيرة.. فلنقف لدى قصيدة الحمى، مثلا: أهي حمى مرضية أصابت جسم الشاعر فعلا أم هي حمى وبائية أصابت المجتمع كله من حوله؟.. حين أعود إلى تلك القصيدة وغيرها من القصائد التي قالها الشاعر وهو في حصار كافور، أو قبل ذلك، فإني لا أملك إلا العجب والاستغراب والرهبة. أول قصيدة مديح لكافور يبدؤها بهذه الصورة المخيفة، صورة الموت، إذ يقول:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا

وحسب المنايا أن يكن أمانيا

أي مديح هذا.. بل أي شعور صاعق أن تصل الحالة النفسية من اليأس لدى الشاعر إلى هذه الدرجة المتردية التي لا شفاء منها إلا بالموت، ولكن الموت يغدو أمنية للخلاص، أمنية مستحيلة لا تنال!

خارج ثنائية الانتشار والانحسار

في مناخات صحية وأجواء حضارية متفتحة، يكون المستوى الشعري هو المسؤول عن سعة الشيوع والانتشار. أما في ظروفنا المعتلة، فلا أرى من خسارة أو حرج في أن ندع مسألة الانتشار والانحسار جانبا، فهذه أعراض وأحوال وتقديرات تصلح للاستطلاعات الصحافية واستكشاف ميول الطلبة أو مستوى تحصيلهم. ولا ريب أن بحث هذه المسألة لن يسهم في تحسين حالة الشعر وتعزيز مكانته في المؤسسة أو المجتمع، إنما هو وسيلة ومدخل للتفكير بصوت مسموع وإمعان النظر وتبادل الرأي في شجون الشعر وشؤونه، وفرصة للاحتفاء به، وصولا إلى منظومة القيم الإنسانية والجمالية والحضارية واللغوية والروحية التي يمثلها هذا الشعر.

والعودة إلى موضوع الشعر تعني تركيز الاهتمام على القصيدة... على تلك الحالة الوجدانية الخفية التي تشكل القصيدة وتسويها كائنا عجبا، كائنا شعوريا فنيا جماليا، منسوج الصور من خيوط الكلمات وألوانها، وهي صور مفعمة بالإشارات والرؤى والدلالات، مشرعة على شتى المقاربات والاحتمالات.

تبدأ ملحمة جلجاميش بالقول: «هو الذي رأى...».

الرؤية في المعاجم متعددة المعاني، فهي تعني البصر والبصيرة والرأي والحلم والشهادة والتقويم... إلى آخر ما هنالك من معان رضعناها مع حليب الأمهات وارتشفناها من أباريق المدارس والجامعات ومجالس الأنس والسمر. لكنها في الشعر تغادر حدودها المعجمية وتنزاح لتكتسب دلالات وإيحاءات وأبعادا مختلفة.

إن وفرة الإنتاج الشعري لا تعني جودته. الموسوعة الشعرية صارت تحتوي على ثلاثة ملاين ونصف المليون بيت من الشعر، يكفي أن يكون ثلثها أو ربعها ذا مستوى جيد. صاحب اليتيمة، كعب بن زهير، البوصيري، لقيط بن يعمر الإيادي، مالك بن الريب، ابن زريق البغدادي، المقنع الكندي، حاتم الطائي.. وغيرهم كثير، هؤلاء معروفون بقصيدة واحدة. وهذا يؤكد أهمية المستوى. الشعر يشكل، في رأيي، روح الأمة. ومن هنا تبدو ترجمته عسيرة أو شبه مستحيلة لأن الأرواح لا تترجم. وتحضرني هنا عبارة للصديق الشاعر فرج بيرقدار الذي قضى أربع عشرة سنة في أقبية السجن السياسي. يقول الشاعر: «كلما قرئت قصائدي مترجمةً شعرت بالانقباض. رموز وإحالات لغوية وتاريخية كثيرة لا بد أن تُفقِدها الترجمة الكثير من ظلال معانيها وجمالياتها...».

ومثل آخر من أقصى الشرق والغرب. يشكل الهايكو الياباني أصغر قصيدة في العالم. القصيدة مؤلفة من سبعة عشر مقطعا موزعة على ثلاثة أسطر: خمسة، سبعة، خمسة. ولهذا الشعر قواعد صارمة، ومنها أن كل قصيدة ينبغي أن تحتوي على كلمة أو إشارة تدل على الفصل الذي كتبت فيه. لكن حياة الاستهلاك، والطريقة الأميركية التي استطاعت أن تغوي العالم وتشده إلى أحضانها وتعبث بكل جميل، جعلت هذا الشعر لعبتها. فحين تقرأ الهايكو الأميركي تشعر بأن ثورا بريا هائجا دخل روضا من الأزهار ليحيله قاعا صفصفا. وإذا استثنينا بعض الشعراء المخلصين في محاولاتهم الصادقة في كتابة قصائد قصيرة، فإن طبيعة اللغة الإنكليزية وخصائصها لا تسعف بتقليد الهايكو، وبخاصة أن اللغة اليابانية مقطعية.

فلسطين الوجود

أود أن أقول إن بعض الترجمة أو كثيرا منها يسهم في بلبلة الشعر وتهافته. وإذا أردتم أن أتحدث في الهواجس الخفية الكامنة وراء ولادة قصيدتي والداخلة، بشكل أو آخر، في سدى نسيجها ولحمته.. فأنا أرى أن جرح فلسطين، في واقعيته ورمزيته وفجائعيته، غائر في أعماق وجودي ووجداني، سواء شعرت بذلك وعبرت عنه بصور واضحة مكشوفة، أو توارى مطموسا في غياهب اللاشعور ليوشي الكلمات والرؤى بمسحة من الأسى الأندلسي والشجن البابلي الشفيف.

قبل فلسطين، كانت الأندلس التي ترسبت ذكرياتها في القاع وتحولت إلى أطياف رومنسية غاربة... وقبل فلسطين وبعدها ومن خلال حضورهما الأثيري الحار الموجع والموّار في خلجات الوجدان وكيمياء الخلية.. تنبثق قضايا الحرية والعدالة والخير والجمال.

كنت أطفو سؤالا لوجوها
على غبش العاشرة
يوم جاءت فلسطين إلى دارنا
واستراحت قليلا على صدر أمي
تجدد لون الحليب
وطعم الحليب
وتدخل في صيغة الروح،
تدخل طيَّ نسيج الهواء
يومها اختمرت أرضنا..
وجوانحنا..
بالعذاب الجليل.

فلسطين لم تكن يوما عنصرا خارجيا أو ملحقا بشعر جيلنا، إنها نسغ الشعر ونبض الشعور وأنفاس الكلمات. والحكمة الهندية تقول: ليس مهما أن ترى النار الموقدة أو ترى الثمار على الشجرة، لكن المهم أو الأهم أن ترى النار في قلب حجر الصوان وأن ترى الشجرة في نواة الثمرة.. وتلك هي فلسطين في كوامن الشعر.

أذكر أني عانيت المرض في صباي أربع سنوات متواصلة، ثم زار دمشق جراح فرنسي في ربيع 1956، وكان أن أودعت في جيرة بردى خمس قطع من أضلاعي وشطرا من رئتي اليسرى. وعندما أتذكر طبيعة الشعر، تتداعى صور علتي القديمة وأدرك أن اغتصاب فلسطين أخذ قطعة من حبة القلب وضياء العين وجوانح الروح.. وكان الشعر هو المحرقة وهو البلسم والعزاء.

كيف يتخلى الإنسان عن روحه أو يستهتر بها؟ ذلك ما لا يمكن التعبير عنه.

ليس الشعر بيانا حزبيا ولا أعطاف راقصة أو قهقهة مهرج أو قفزة بهلوان يتنقل برشاقة فوق الحبال. إنه لغة الأعماق الدافئة، خلجات المشاعر الحميمة. وهو شجرة الجمال الحضارية التي لا تنحني أمام الأعاصير ولا تقوى الزلازل أن تميد بأرضها، كما أن الصواعق لا تستطيع كسر أفنانها أو التهام أزاهيرها. الشعر نضرة الحياة ونور الاكتشاف وهواء العافية. وإذا كانت رسالة المعلمين أن يعملوا على تربية الذائقة لدى الأجيال بالرسم والشعر والموسيقى، فإن مسؤولية المبدعين تقضي بالعمل الجدي الدؤوب لحماية هذا الوجه البهي المشرق من الحياة في أغلى تجلياته الجمالية وأصفاها.

* كاتب من سورية

فتحية ناصر: التحرر لا يغني عن القيمة الفنية

بيروت ـ من جورج جحا:

ليس ثمة شك في اهمية موجة التحرر والتمرد والجرأة التي تطل من خلال اعمال ادبية بل قصصية لكاتبات عربيات وخليجيات في شكل خاص.. لكن هذه الاهمية قد تبقى محصورة في مجال